قرطبة

في عشية السبت الأول من أغسطس سنة ١٩٤٧ تركنا مدريد عاصمة أسبانيا بقصد قضاء عطلة أعيادنا وتزودنا لسفر طويل يزيد عن خمسمائة ميل لكي نصل الى قرطبة قرابة ظهر اليوم التالي . سرنا في أمان الله في طريق جبلي مرصوف كثير الالتواء والارتفاع والانحدار وقد أرسل القمر أشعته الفضية على ما يحيط بطريقنا من سفوح الجبال والهضاب والوديان فتنعكس في أبدع صورة وأجل ما حبته الطبيعة من مناظر زادها حسناً وبهاء تلألؤ الأضواء الكهربائية التي تربط المدن والقرى بعضها ببعض والتي كانت تلوح لنا من بعد على سفوح الجبال فتسر الناظرين إليها كأنها عقد من جمان نظمت فيه لآلىء منثورة بين المروج الخضر .

استمر الطريق كذلك ونحن نجتاز أنواعاً شتى من المناظر الطبيعية التي يندر وجودها في مكان آخر حتى انتصف الليل وغلبنا النوم الى شروق الشمس بعد أن قطعنا نحو ثلثي من نصف الطريق . وهنا تختلف المناظر الطبيعية من الصابئة قليلاً ، اذ تقل الارتفاعات وتقصر وقمة المزارع المستوية في أغلب الأحيان رغم ما يحيط بها من جبال كأنها مأهولة من أحواض قليلة الغور بعيدة الطاقة تختلف سعة بعضها عن بعض . وتنتشر فيها زراعة النبات الغذائية كالقمح والشعير والذرة والأرز على جانبي وديان الأنهار وفروعها التي تنحدر من سلاسل الجبال المنتشرة في الهضبة الأسبانية ، كما تكثر على مدرجاتها مغارس الكروم والزيتون والخروب وأنواع الفاكهة المختلفة كالتفاح والكمثرى وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة التي يشتهر بها حوض البحر المتوسط . وأهم ما لفت نظرنا كثرة مراعي الثيران البرية التي تربى خصيصاً للمصارعة .

وبينما نحن في مرحنا وسرورنا تتجاذب أطراف الحديث إذ لفت نظرنا من بعد شبح

أبنية أخذ يزداد عددها كلما قربنا منها فأخبرنا أحد موظفي وزارة الخارجية الأسبانية المرافقين لنا أنها أبنية قرطبة .

وبعد قليل وصلنا إليها وتمادت سيارتنا مارة بأحيائها الجديدة والقديمة تخترق شوارعها الضيقة الملتوية ، تكتنفها منازل عالية متلاصقة فتحجب عن الشوارع بعضها ضوء الشمس فتقل حرارتها جداً . ولذلك كان السير في هذه الشوارع القديمة مستحباً في أشهر الصيف عن السير في شوارع الأحياء الجديدة الواسعة . وتفتح أبواب المنازل في الأحياء القديمة الى ردهات صغيرة ملتوية لتحجب عن المار رؤية الداخل . وتؤدي منها الردهة الى فناء واسع مكشوف تحيط بأغلبها بوائك على عمد رشيقة يعلوها حجرات المنازل المطلة على الفناء . وقد غرست به أشجار الفاكهة وصفت على جوانبه أصص الرياحين والأزهار فيعبق الجو بالعطور الزكية من تلك الحجرات المنزل . وأهم ما يلفت نظر الزائر جدران الدخل والفناء فقد زينت بزليجات القيشاني البديعة الصنع الدقيقة الرسوم التي تسمى هذه المنازل كان معداً عند قدماء المصريين ، ثم انتقل الى أوربة على يد العرب ثم عن طريق الأمريكيين من حفائر آثار أسبانيا حيث انتشر بدوره خاصة في جنوبها وجنوبها الشرقي . وقد نزلنا بأحد تلك الدور الشرقية القديمة فقر سكن طابقه الأعلى وفيه أسرتنا قليلاً من هذا العناء ، وأتى لنا أن نستريح ونحن متلهفون لرؤية آثار هذه المدينة التي سجلت اسمها بأحرف من نور في سجل المجد فرطبة التي تفخر به هذه المدينة ، عاصمة الأندلس قلب الشرق العربي وبعد أن احتلها عبد الرحمن الداخل الأموي في سنة ٧٥٦ م جعلها عاصمة لدولته وظلت حتى اضمحلها فرديناند الثالث بعد أن ترك بها للمسلمين من المشروعات العمرانية المختلفة ما تشهد بعبقريتهم الفذة في أنواع الفنون المختلفة وتسجل في تاريخهم آثاراً خالدة في نوعها تدل على نهضة فياضة زاخرة .

فمن مشروعاتهم الجبارة اصلاح القناطر الرومانية سنة ١٠١ على نهر الوادي الكبير الذي يحد المدينة من الجنوب . وقد أقام هذه القناطر ليوصل قمح ماء الشرب عذباً وتنتهي من الطرف الشرقي بقلعة من بناء العرب لها برجان عظيمان .

وكان بقرطبة ثمانية مدارس للتدريس العلوم وتخريج العلماء ، وكان على رأس هذه المدارس مسجد قرطبة الأعظم الذي كان بمثابة جامعة اسلامية كالجامع الأزهر الآن

العصر الباطني . وكان يؤمه المسلمون في سفوح الأرض وتقريبا للحصول العلوم على أساتذتها المتفلنين .

وقد بلغ من تسامح العرب الديني عند استيلائهم على قرطبة ، أن اقتسموا الكنيسة بينهم وبين المسيحيين ليقيم كل منهم شعائره الدينية . فأقام المسلمون صلواتهم في النصف الجنوبي الشرقي المواجه للكعبة . وأقام المسيحيون صلواتهم في النصف الآخر . وظل الحال كذلك قرابة الثلاثين عاماً من حكم عبد الرحمن الأول حتى اعتلى الحكم العربي بقرطبة ، وزاد عدد المسلمين بها حتى ضاق بهم المسجد . فتفاوض الخليفة الأموي عبد الرحمن مع المسيحيين لشراء نصف الكنيسة الآخر ليضمه للمسجد لقاء مكافأة مالية كبيرة يمنحها المسلمون للمسيحيين لإقامة كنائس لهم خارج قرطبة حتى لا تتعطل شعائرهم . وقد كان في وسع خليفة المسلمين الاستيلاء على نصف الكنيسة الآخر دون أي مكافأة أو تعويض . فأين حرية الرأي الدينية اليوم من أمس

وقد تم الاتفاق بين الطرفين وأضيف النصف الثاني للمسجد عام ١٧٠ هـ . ويعرف هذا المسجد بمسجد عبد الرحمن الأول . وكان يتكون من بابه تقدمه أروقة الصلاة وعددها احد عشر رواقاً تفصلها عشرة صفوف من الأعمدة في كل صف احد عشر عموداً فيكون عدد الأعمدة جميعها مئة واحد عشر عموداً . ولما بناه المسجد عند هذا الحد بل أضيفت اليه ثلاث زيادات أخرى من الجنوب والشرق حتى بلغ عدد أعمدته ١٢٩٣ عموداً . وذلك لزيادة اقبال المسلمين على المسجد فأضاف عبد الرحمن الثاني عام ٨٠ هـ ثمانية أعمدة إلى كل صف من الصفوف العشرة السابقة في مسجد عبد الرحمن الأول .

وفي عهد الحكم عام ٣٥٥ امتدت صفوف الأعمدة من جهة القبلة عشرة أعمدة أخرى وجعل بها محراب جميل محيط به تربيعات القيشاني الجميل وحولها اطار من الكتابة الكوفية عليها تاريخ انشائه .

وقد استجاب المنصور عام ٣٧٦ لرغبة المصلين في إضافة زيادة ثالثة الى المسجد ولكنه لم يجعلها جنوباً كما فعل أسلافه ، بل أضاف زيادة الى المسجد من الجهة الشرقية . فأضاف تسعة أروقة بطول المسجد ليكون عدد أروقته النهائية تسعة عشر رواقاً . وقد منعه نهر الوادي الكبير من التوسع جنوباً كما منعه قصر الخلافة من الجهة الغربية .

وبذلك أصبح شكل الجامع مستطيلاً ، طوله من الشمال الى الجنوب ١٧٥ متراً وعرضه من الشرق الى الغرب ١٣٤ متراً . وظل المسجد بهذين الشكل بين عهد المنصور حتى غزا قرطبة فرديناند الثالث عام ١٢٣٦ ، فبقي به مسجداً صغيراً لمدة كنيسة كما بقي في زيادة

الحكم سعيد آخر قرطبي الطراز في نهاية القرن الخامس عشر وفي عام ١٦٠٧ تمّ انشاء كنيسة عتيقة في وسط المسجد .

ويشغل الصحن ثلث مساحة المسجد . ويحيط به من الشمال والشرق والغرب صف من الأعمدة والدعائم . وقد كان مقسماً الى ثلاثة أقسام زرعت فيه أشجار البرتقال حتى أطلق عليه هذا الاسم . أما الآن ففيه أشجار الصنوبر والنخيل وتروبه ثلاث نافورات شكل (٤)

ويبدو المسجد من الخارج كأنه قلعة محصنة بجدار عميك ارتفاعه عشرة أمتار وتضعف تتوجه شرفات مسننة ، وتبرز من الجدران دعائم ساندة لتزيد في قوة البناء وتتحمل ضغط العقود المتكئة عليها من الداخل . شكل (٥)

والمسجد تسعة عشر باباً أهمها المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية ويقع في نهاية الطنف الذي يتعامد مع المحراب والعقد الكبير الذي يتوسط مسجد عبد الرحمن الأول . وواجهة هذا الباب من الرخام المنقوش بزخارف بديعة عربية (كالدنتلا) تتوسطه كتابة عربية برخط مشجر بقطع من النحاس بعضها مثمن الشكل ، والبعض الآخر مشرات صغيرة متعامدة حفرت عليها زخارف نباتية (أرابسك) . وقد أزال المسيحيون — عقب استيلائهم على قرطبة وتحويلهم المسجد الى كنيسة — بعض هذه الزخارف وحفروا بدلها صلباناً وشارات ملوك من الكاستيليين ١٣٣٧ .

وعلى يسار الداخل مئذنة شاهقة الارتفاع بناها عبد الرحمن الثالث الناصر عام ٩٣٠ بدلاً من برج الأجراس القديم . وقد بنى هذه المئذنة من الحجارة على نمط مئذنة الجامع الأموي بدمشق . وهي مربعة الشكل طول ضلعها ١٢ متراً وارتفاعها ٩٣ متراً وتتكوّن من خمسة طبقات وضع المسيحيون بها أجراساً عام ١٥٩٣ . وللمئذنة بابان يؤدي كل منهما الى درج مستقل عن الآخر ولا يتقابل الصاعد عليهما الاّ في قمة المئذنة .

يجتاز الانسان الفناء الى المسجد فيجد نفسه في غابة واسعة أشجارها من عيقة محبوكة من الأعمدة الرخامية المختلفة الأشكال والألوان . فمنها عمد ملساء ، وأخرى مقنطة ، وغيرها تحيط بها قنوات حلزونية وبلغ عددها ١٢٩٣ كما ذكرنا آنفاً ، جلب بعضها من ناربون الفرنسية ، والأخرى من أشبيلية أو تراجونا كما جلب البعض الآخر من خرائب قرطاجة المدينة الرومانية الى أن أحضر هذا الأمير الروماني ليبر الرابع تلك العمد من القسطنطينية .

ولما كانت مساحة المسجد كبيرة والأعمدة قصيرة الطول لا يزيد ارتفاع الواحد منها عن ثلاثة أمتار فقد أملت على البناء الاوتاد بسقف المسجد الى حد يتناسب مع مساحته

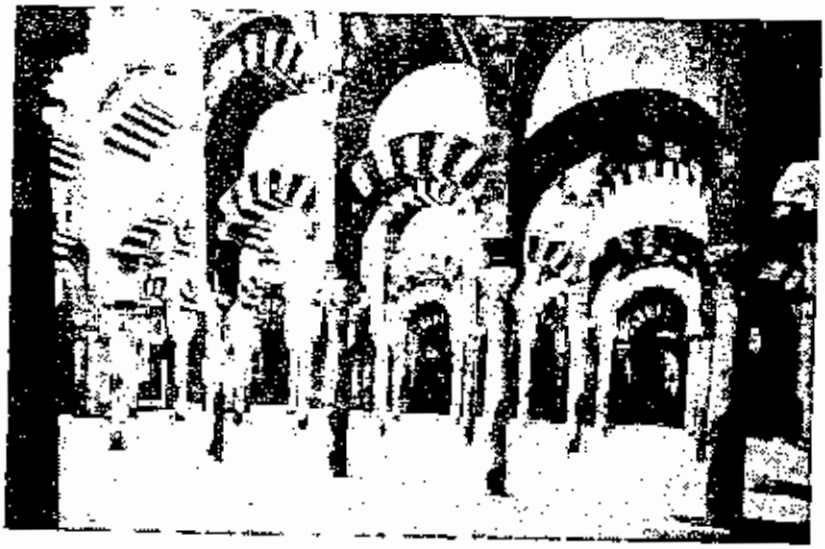

داخل المسجد بعمده وعقوده المزدوجة ذات الاون الابيض والأحمر

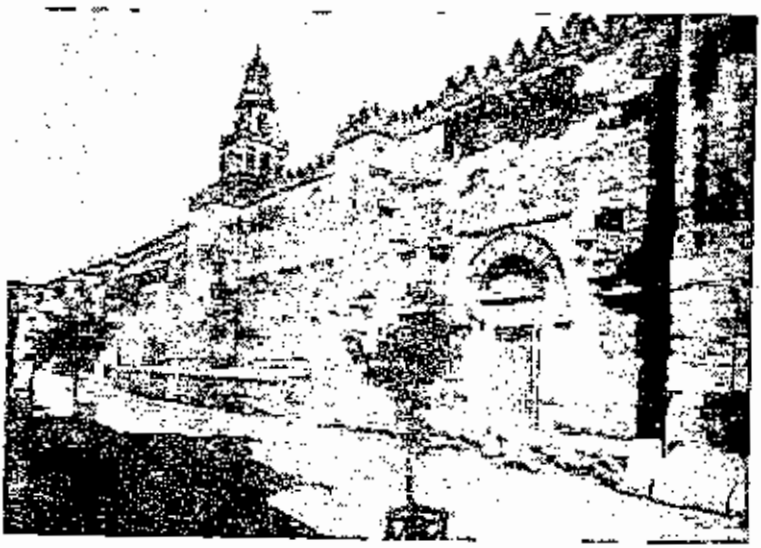

الجدار الغربي بشرفاته المسننة تبدو من ورائها المئذنة

شكل (٤)

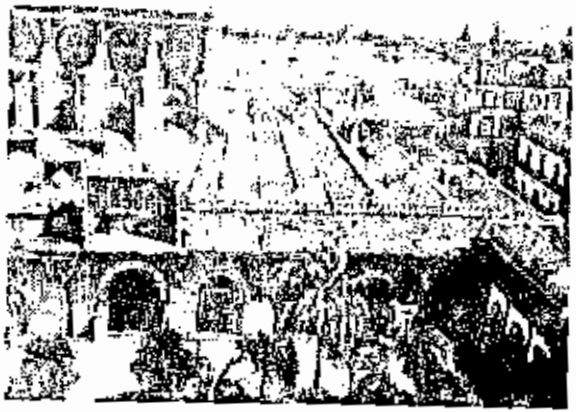

شكل (٥)

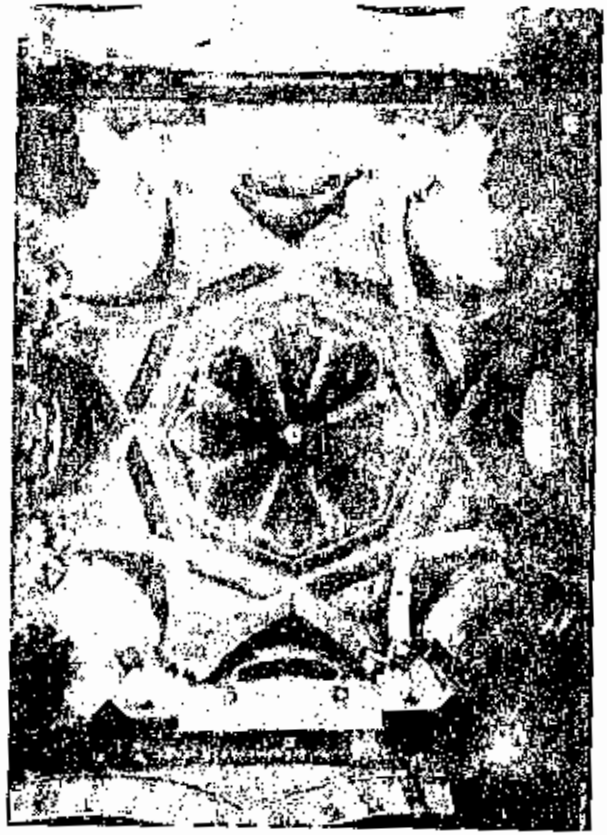

الأسباط التي كان يجاور المسجد من الخلف وقد نقل المسلمون هذه الفكرة من الصور لما كان الحال في مسجد الكوفة أيام علي رضي الله عنه. وفي مسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة ثم انتقلت الى شمال أفريقيا في القيروان، ومنها الى أسبانيا حيث نشاهد هذه الفكرة في مسجد قرطبة. وكانت دار الطلاة تتصل بالمسجد مباشرة بواسطة ممرات مختلفة بقدر ما تسمح الشارع التي يحد جدار المسجد من هذه الجهة مع العلم ان مسجد قرطبة الآن محيط به شوارع أربعة من الجهات الأربعة.

وبالرغم من سعة هذا المسجد العظيم وكثرة عدد التي تربو على الألف فقد كان يضاء بثريات تبلغ ٤٧٠٠ ثرية من الفضة الخالصة. وكان بينها واحدة يزيد وزنها على ١٠٠٠ منا ولم يبق من هذه الثريات إلا ٤٠٠ حتى أواخر القرن ١٨ أخذها الفرنسيون معهم عند خروجهم من اسبانيا في زمن نابليون. وكانت هذه المصابيح تستنفد في كل سنة ٤٥٠٠ رطل من الزيت.

وكانت أضواء هذه الثريات تنعكس على السقف المذهب بفرشه العجيب فكانت تزيد المصلين تقوى عيونهم وتستميل قلوبهم. ولا يزال بعض هذا السقف باقيا في أرجاء المسجد إلا أن الأرجاء الأخرى قد بدل المعجبون بعض سقوفها بأقبية متقاطعة تحتى ورائها السقف الأصلي وذلك لاقامة عقود كنيستهم فجاءت غير متناسبة مع باقي سقف المسجد فأخذوا الآن في رفعها وإعادة باقي السقف الى ما كان عليه قبلاً. ومع ان هذا السقف مستتر من الداخل إلا أن شكله من الخارج يكون مثلثات قائمة متوازية (جالونات) كسقف المسجد الأقصى (شكل ٤). ولم يتخذ المسلم هذا الشكل اعتباطاً وإنما كان يرمي الى فكرة تعرف بما نسميه اليوم بتكييف الهواء. وكان الغرض من السقف الخارجي الآخر ان يقلل من اشعاع حرارة الشمس داخل المسجد فيلطف من درجته ويحفظ حرارته منتظمة كما يساعد من جهة أخرى على تصريف ماء المطر التي يسقط سقفه كما هو مبين بالشكل (د). وقد لاحظنا أن أرض المسجد قد طمرت الى علو نصف متر ليخفي ما تحتها من فصوص الرخام وتراكم العمد. وتعمل الحكومة الاسبانية الآن على رفعها واعادتها الى حالتها الأصلية كما تحافظ على باقي أرجاء المسجد.

ولا يسعنا إلا الفخر والاعجاب بعظمة المسجد الجامع وما حوى من روعة البناء ومختلف النقوش الاسلامية وما لا يتصور أي انسان في مسجد آخر في العالم الاسلامي وهو يحق الفرقة الثانية التي تتوج هامة الاثر الاسلامي باسبانيا في تاريخ العرب

محمد رجب البيومي
دبلوم في الآثار الاسلامية